بمناسبة إصدار كتاب «عاصمة الورود» لعبد الرحمان قونسي ومحمد النضراني، من مجموعة بنوهاشم، جريدة التضامن تحاور الرفيق النضراني

في البداية لا بد من التذكير بأن الكتاب من إنجاز رفيقين من المجموعة وهما عبد الرحمان قونسي ومحمد النضراني.

الرفيق محمد النضراني، بعد الإصدار الأخير تحت عنوان «عاصمة الورود» تطرح عليك جريدة التضامن بعض الأسئلة بخصوص هذا النتاج الأخير وكذلك عن تجربة مجموعة بنوهاشم.

س: متى تم التفكير في كتابة هذا النتاج / التجربة المريرة التي عرفتها مجموعة بنو هاشم؟

ج: أظن بأن التفكير في خوض هذه التجربة كان في فترة الاختفاء القسري حيث كنا دائما نردد ونتمنى أن يخرج منا فرداً حياً من الاختفاء القسري ليحكي كلما تعرضنا له من مأساة في تلك الظروف القاسية جدا.

ربما الفكرة كانت موجودة وكانت تلازم تفكيرنا وهاجسنا الأول هو هل سيتمكن أحد منا من البقاء على قيد الحياة ويطلق سراحه ليحكي على الأقل غن الذين سقطوا بحيث كنا ننتظر السقوط في كل لحظة وخصوصا أننا كنا نرى الكثير من المختفين قسرا يموتون أمام أعيننا. وكنا ننتظر نفس المصير. إذن السؤال الذي كان يتبادر إلى الدهن وكنا نجتره في كل آونة هو أن نتمكن أو على الأقل أن يتمكن أحد منا أن يقوم بهذه الشهادة وأن يفضح تلك المأساة وذلك النظام الجهنمي الذي يعرف بالاختفاء القسري. وبطبيعة الحال، منذ إطلاق سراحنا لم تكن لدي شخصيا إلا هذه الفكرة. فقد قدمت شهادات من خلال لوحات تشكيلية وعبر الندوات التي تم تنظيمها ولم أتوان قط للإدلاء بهذه الشهادة. إذن المادة كانت موجودة والقرار اتخذ آنذاك وبقيت فقط مسألة وقت إصدار هذه الكتاب. وأقول إن الصفحات الأولى كتبت مباشرة بعد إطلاق سراحنا على الأقل في مادتها الخام.

س: لماذا كتابة «عاصمة الورود»؟

ج: يبدو لأول وهلة أن هناك الكثير من الشهادات، من الكتب التي صدرت بخصوص ما أصبح يصطلح عليها بأدبيات السجون. ولكن، حينما نرى المأساة التي عاشها الشعب المغربي وعاشها المناضلون الذين اعتقلوا أو اختطفوا أو عذبوا...، نجد أن عدد هذه الكتب لا يتعدى عشرة وأعني الإصدارات المنجزة من طرف أناس قضوا مدد حبسية في مراكز الاعتقال أو الاختفاء ... أما الذين كتبوا حول التجربة فهناك كتابات أخرى وأنا أحرص على أن أحد هذه الكتابات في الذين عاشوا وأصدروا شهادات كتابة. إذن أرى أن إصدار عشرة كتب لمدة خمسين سنة من الاضطهاد والقمع ... فهذا قليل جدا من حيث الكم. أما الكلام عن الكتابات أو الشهادات فإننا نحصر ذلك في المعلومات والأحداث التي وقعت ولا نتكلم أبدا عن الكتابة في حد ذاتها ككتابة بمفهومها الروائي والأدبي ... يبقى هذا الجانب دائما في الخلف. لست هنا بصدد تقييم العمل الذي أنجزناه وإنما حسب الأصداء إلى حد الآن هو أن هناك إضافة نوعية من حيث الشكل الروائي الذي كتبت به هذه الشهادة. ومن هنا أظن بأن هذا المجال لا زال خصبا ونلمس هذا النقص عندما نطلع على الكتابات الأجنبية في هذا المجال المتعلقة بالسجون الإرلندية أو التركية أو جنوب إفريقيا ... بحيث نجد نفس الأحاسيس والمواضيع والتصورات تقريبا. أظن بأن لازال هناك الكثير وربما أن الفكرة التي طرحت أخيرا حول معانات العائلات، تثير مسألة كون أهم الشهادات الحالية خرجت من داخل مراكز الاعتقال أما الشهادات من خارج الأسوار فهي قليلة جدا وهذا يؤكد على أن هناك ما يضاف في هذه التجربة. لن أقوم بتقييم هذا العمل الصادر عنا نحن الاثنين ولكن حسب ما رأيته وما سمعته فإن تقييم هذا الإنتاج إيجابي جدا وأن الأسلوب الذي تم توظيفه في هذا الكتاب حسب الشهادات أتى بقيمة مضافة مهمة جدا وخاصة من حيث دقة الوصف لكون شيء بسيط مثلا يأخذ أبعادا ذات دلالة عميقة فمثلا عندما أتكلم عن الباب المفتوح الذي يصبح هو الآخر آلة للتعذيب. عندما أثير مثلا بعض العوامل كالضوء والشمس فإن هذا يأتي ليبين أكثر عمق تلك المأساة علما أن المأساة ليست فقط ذات طابع جسدي ولكنها في نفس الوقت داخلية، نفسية لذلك نلجأ قي بعض الأحيان إلى صور مجازية وخيالية ... كما أن تفحصنا للكتاب يبرز أن طريقة الحكي تتضمن الكثير من الإحالات (les renvois) بمعنى أننا بعد إدخال القارئ للسجن ولجعله لا يحس بالملل ولكي لا نجعله خاضعا للتعذيب فإننا نلاحظ أن الكتاب تتخلله سخرية وهذا ما أشار إليه الرفيق أبو زيد في قراءته للكتاب عندما أبرز أن الكاتب يظهر شغفه ورغبته في الخروج من ذلك العذاب وأنه كان يحلم ويعود إلى ذاكرته ويسافر بالقارئ إلى مواضيع مرحة للتخفيف على القارئ وتمكينه من تتبع القفزات في الكتابة بحيث أننا ندخل القارئ للجحيم الذي عشناه وهناك يجد أشياء ذات سخرية، هزلية تستهين بفكرة جهنم التي تصبح لا شيء ثم أخرجه من جهنم ونهتم مثلا بالحمام الذي نحمله رسائل وننتقل إلى عالم الأسطورة لتوظيفها في الكتابة الروائية. وتشهد القراءات المنشورة الخاصة بعاصمة الورود أن توظيف هذه العناصر كلها كان جيدا. وأظن أننا في حاجة إلى هذا النوع من الكتابة حتى يصبح أدب السجون لا يعبر فقط على شهادات جافة بل يهتم كذلك بالشكل الروائي لأداء نفس الوظيفة والمتمثلة في جعل القارئ يتشوق ويرتبط بالكتاب إلى نهايته بل ويبقى شغوفا لمعرفة المزيد وهذا ما نلاحظه بعد هذه التجربة بحيث أن الكل يطلب المزيد وأن نستمر في الكتابة وأتساءل عما العمل.

س : تنفرد المجموعة بكونها تتألف من المتعلمين في التعليم الثانوي والجامعي، وقد عرفت المجموعة مصيرا مختلفا عما خصص لباقي المعتقلين الماركسيين اللينينيين. في نظرك، لماذا خصص للمجموعة هذا المصير؟

ج : هناك مفارقة. في الواقع فإن هذه المجموعة عرفت مسارين أو مصيرين. عرفنا مصير مجموعة السرفاتي بحيث أننا أدرجنا في المحاكمة العلنية لحضور مراقبين والصورية باعتبار أنها محاكمة غير عادلة تفتقر إلى كل الشروط المتعارف عليها بالنسبة للمحاكمات العادلة وأخص بالذكر عدم احترام حقوق الدفاع وعدم السماح لاستدعاء شهود نفي الادعاءات. وخلال هذه المحاكمة نطق في حق ثلاثة منا (عبدالناصر بنوهاشم، محمد الرحوي ومحمد النضراني) حكم غيابي بالمؤبد. إذن فمن الجانب القانوني فإننا حكمنا غيابيا علما أننا كنا في نفس الوقت مختطفين من طرف عناصر إدارة التراب الوطني (DST) في المركب البوليسي المعروف بالكومبليكس بالرباط. هذه هي المفارقة. كنا في نفس الوقت مررنا بمصير كنا نجهله تماما في حينه والذي كان معلوم خارج زنازن الكومبليكس أي أننا حوكمنا غيابيا على اعتبار أننا كنا في حالة فرار ونحن مختطفين وفي نفس الوقت تم إخفاءنا في الكومبليكس ثم تحويلنا إلى معتقلات سرية أخرى وهي أكدز وسكورة وقلعة مكونة. أما لماذا تخصيص هذا المصير؟ فهذا السؤال لا يزال يؤرقنا والذي يمكنه الإجابة عليه هي الدولة التي إلى يومنا هذا من خلال هيئة التحكيم أو هيئة الإنصاف والمصالحة أو غيرهما فلم تقدم أي جواب بخصوص كيفية اتخاذ قرار رمينا إلى هذه المعتقلات السرية ومن اتخذه. بطبيعة الحال فإننا نعرف فقط منفذي القرار. ولازلنا نناضل من أجل معرفة الحقيقة. حسب معرفتي فإن التقرير النهائي لهيئة الإنصاف والمصالحة لم يتضمن بخصوص مجموعتنا سوى أربعة أسطر. فكيف يعقل أن مجموعة قضت تسع سنوات في الاختفاء القسري ومجهولة المصير واكتشفنا بعد ذلك بأن سجلاتنا العدلية كانت فارغة في الوقت الذي كان ثلاثة من المجموعة محكومين بالمؤبد ونتساءل عن الجهة التي أعطت الأوامر لتسحب هذه الأحكام من ملفاتنا العدلية بدون إعادة محاكمتنا. وفي ظل هذا الوضع فيمكن في أي وقت أن يلقى علينا القبض لأن الحكم قد صدر في حقنا باعتبار أننا كنا في حالة فرار وبالتالي فيمكن في أي وقت إخراج تلك الملفات والاستناد عليها لإصدار أمر بالاعتقال وذلك في حالة تواجد قضاء مستقل. ونتساءل عن حقيقة وضعنا القضائي باعتبار أن الحكم القضائي يلغيه حكم قضائي يليه. عندما نتكلم عن التعسف والاستبداد (l'arbitraire)، فإننا بالفعل كنا ضحايا هذا الاستبداد بحيث أن الأجهزة لغرض في نفس يعقوب ربما لإثبات وجودها أو في التنافس بينها قررت نفينا إلى المعتقلات السرية بالكومبليكس وأكدز وقلعة مكونة وسكورة. كل ما قمنا به هو أننا شرحنا وأدلينا بشهاداتنا حول ما تعرضنا له لمدة تسع سنوات. أما بخصوص المسؤولين عن إخفائنا القسري أو كيفية اتخاذ هذا القرار فإننا لا زلنا ننتظر كشف الحقيقة وكل الحقيقة بخصوص ما جرى. وكما جاء في كلمة المجموعة في اللقاء الأخير بالمكتبة الوطنية في حفل توقيع كتاب «عاصمة الورود بالرباط، فإننا سنبقى الضمير الشقي في هذا المجتمع إذا لم نتوصل إلى الحقيقة وربما أبناءنا سيرثون هذا الملف من بعدنا.

س : تتألف مجموعة المناضلين التلاميذ والطلبة الذين اعتقلوا في الكومبليكس من أربعة عشر مناضلا. في نظرك، كيف أو على أي أساس تم عزل خمسة رفاق فقط ليتلقوا مصير مجموعة بنوهاشم وإطلاق سراح تسعة من بينكم؟

ج : يمكن أن أدفع بالمعادلة إلى أقصاها. فمثلا كان مسار أحمد السعداني ومولاي ادريس لحريزي واحدا بحيث كانا في نفس الإطار وتقاسما نفس المهام كتلاميذ في ثانوية عبد المالك السعدي بالقنيطرة وفي الجامعة بالرباط وكان المصير مختلف بحيث قضى احمد السعداني خمسة عشر شهرا بالكومبليكس واقتيد مولاي ادريس لحريزي إلى معتقلات أكدز وسكورة وقلعة مكونة. وأقول أن الاستبداد والعشوائية وهناك من كان يتحكم في الخيوط ويتلاعب بالمصير بشكل مزاجي. وبالتالي فإننا نرغب بإلحاح أن تكشف كل الحقيقة حتى لا يتكرر ما جرى.

س : تصب كل الإصدارات الخاصة بك أو بأفراد المجموعة في اتجاه حفظ الذاكرة. وباعتبار أن الحركة الحقوقية في المغرب تناضل من أجل أهداف من بينها عدم تكرار ما جرى وإيقاف ما يحصل حاليا من تجاوزات، فهل لهذه الإصدارات ذلك الوقع الذي كنتم تتوقعونه؟

ج : ما يمكن أن أقوله هو أننا نقوم بواجبنا لحفظ الذاكرة وحتى تستخلص الدروس من هذه التجربة المريرة بالنسبة للأجيال القادمة. ونرى أن على الجمعيات الحقوقية أن تواكب هذه العمل وان تهتم وتعمم كل الإصدارات التي أنتجت حول الاختفاء القسري أو ما يصطلح عليه بأدب السجون في المؤسسات التعليمية والجامعية عبر نوادي حقوق الإنسان مثلاً لتمكينه من هذه المادة الحقوقية. وعلى سبيل المثال فقد توصلت يومه برسالة إلكترونية من نادي لحقوق الإنسان بثانوية من أكدز وكنت في غاية السرور بوجود هذا النادي بالقرب من سجن الحد وكان ردي للتو بكون ما مجموعة بنوهاشم تضع نفسها رهن إشارة ذلك النادي وأننا سنعمل بكل ما في وسعنا لإنجاح برنامج هذا النادي. وكما نعلم أن هناك اتفاقية شراكة بين وزارة التربية الوطنية وبعض الجمعيات الحقوقية وبالتالي يجب العمل على تفعيل هذه الشراكة ورصد ميزانية للدفع بالعمل في هذا المجال علما أن الجبهة الثقافية مهمة جدا وأنه يمكن خلق ورشات للكتابة كما هو معمول به في تجارب بعض البلدان بحيث أن البعض يحكي بالعربية أو الدارجة أو الأمازيغية وعناصر أخرى من الورشة تدون. هذه الفكرة يجب التفكير فيها بجدية وتطويرها. ويمكن في هذه الورشات الاستعانة بكتاب محترفين. كما يمكن إنجاز ورشات في الرسم وفي فنون أخرى. وما أقوله بكل المرارة هو أن بعض الحقوقيين يوجدون في جل المعارك ولكن للأسف لا يخصصون وقتا للقراءة. ويجب على الأقل أن تخصص الجمعيات مناضلين لإنجاز دراسات أو تقارير على غرار ما كان معمول به في السبعينات بحيث كان المناضلون يقرؤون الكتب ويتم نقاشها بعد عرضها. إن خطابنا موجه لكل الفئات المجتمعية بما فيها الفاعلين الحقوقيين بالبلاد.

س : وردت في الكتاب بعض المفاهيم، فماذا يعني مفهوم الزمان، الحرية، الكرامة في دهاليس ومراكز الاختفاء القسري؟

ج : بالنسبة لمفهوم الزمان:

في المعتقلات الرسمية، نجد الكتب الجرائد الدراسة ....ولا يخفى على أحد أن هذه المكتسبات حصل عليها المعتقلون السياسيون بفضل نضالات وتضحيات تمثلت في إضرابات عن الطعام واستشهادات. ورغم ذلك أسمح لنفسي بالمقارنة التالية : كنا نقول بأنه لو حكموا علينا بثلاثين سنة سجنا لقضائها بالسجن المركزي بالقنيطرة مقابل ثلاث سنوات في أكدز لقبلنا العقاب الأول بدون أدنى تردد أي منا. بطبيعة الحال، لم يكن في فضاء عاصمة الورود شيء يمكن أن يشغلنا بحيث لا توجد لا دراسة ولا كتب ولا أقلام. بل حتى الخروج إلى الساحة فكان في أحسن الأحوال لمدة نصف ساعة صباحا ونصف ساعة بعد الزوال. أما بالنسبة لباقي الوقت فإن الأبواب توصد علينا بداخل الزنازن مع غياب المرحاض في الزنزانة بمعنى أنه كان علينا تفادي ما أمكن قضاء حاجاتنا الطبيعية في الصفيحة (Bidon) المخصصة لذلك للحفاظ على نظافة الزنازن. كان بالنسبة لنا الوقت عبارة عن فراغ مميت بحيث لا يوجد أي شيء ليشغلنا أو يلهينا عن واقعنا المعاش. بطبيعة الحال، أمسى مفروض علينا أن نبتكر من لا شيء ما يملأ هذا الفراغ فكنا أحيانا نجتر ونردد كل ما تعلمناه فيما قبل. وللتحكم في الوقت، أنجزنا استعمالا للزمان حيث تم تخصيص حصص لحكي الأفلام والقصص وأخرى لإعطاء دروس للأشخاص الأميين الذين رافقونا. واليوم قد زارني قارئ لعاصمة الورود من مدينة القنيطرة للتعرف على الخياط لكوني صنعت من الثوب رقعة الضامة. وكما نعلم أن اللجوء إلى الضامة يعني أن المرء حصل على التقاعد وينتظر قبره لعدم الاهتمام به أو بخبرته. وبالفعل في تلك الظروف كان كل منا لا ينتظر إلا دوره ليقضي نحبه.

بالنسبة لمفهومي الحرية والكرامة، فإننا كنا نعتبر أنفسنا سفراء لهذه المفاهيم. اختطفنا لا لشيء إلا لأننا عشقنا الكرامة؛ لا لشيء إلا لشغفنا بالحرية. ولم يكن لدينا أي شيء نتشبث به إلا هذه المفاهيم والمبادئ وقد تشبثنا بها حتى النهاية

س: هل ندمت على خوضك هذه التجربة المريرة في معسكرات الاختطاف؟

ج : لا أبدا. لم أندم ولن أندم على تجربتي هذه لسبب بسيط فلو رجعت بي الأيام إلى مرحلة ما قبل اختطافي في 12 أبريل 1976، بنفس الشروط والظروف فلن أتوان لحظة على أن أناضل من أجل المثل والقضايا التي ناضلت من أجلها إلى جانب رفاقي. وعلى عكس تاريخ الجلادين البخس فإني أفتخر بهذه التجربة رغم كل المعانات والعذاب. إن تاريخنا تاريخ مجد وافتخار، تاريخ الكرامة والعزة والحلم كذلك.
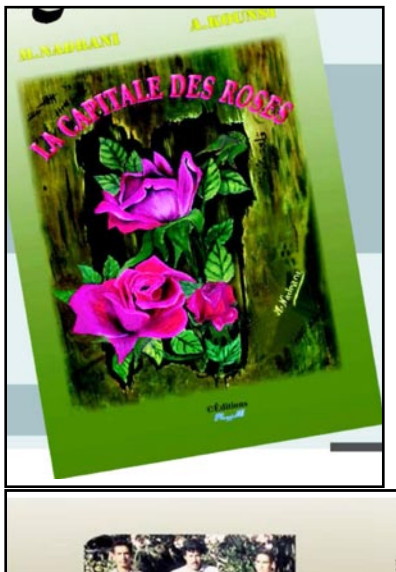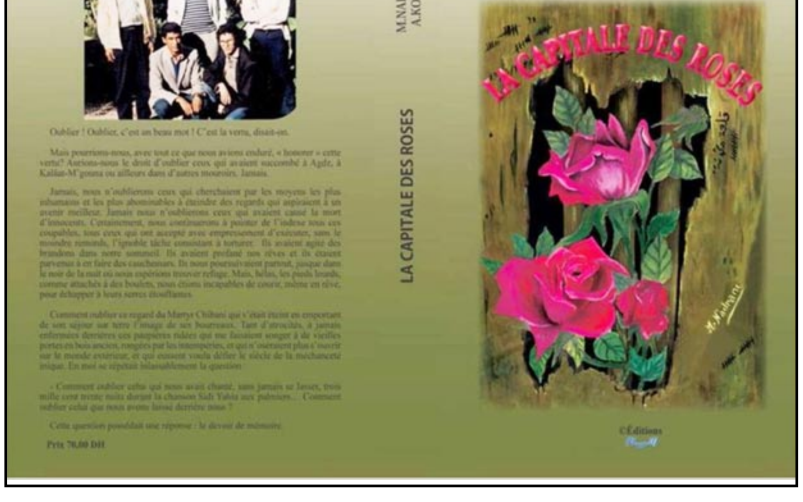
• أجرى الحوار: أحمد السعداني